

الموقف الدولي من السيطرة المصرية على بلاد الشام ١٨١٣-١٨٤٠م

م.م. شفيق محمد محمود *

تأريخ التقديم: ٢٠١٩/١٠/٢٢ تأريخ القبول: ٢٠١٩/١٢/٣١

المقدمة

كانت بلاد الشام محوراً للصراعات لما تتمتع به من موقع استراتيجي مهم وثروات اقتصادية هائلة، ففي العهد العثماني لم تشهد هذه المنطقة استقراراً منذ أن أحكموا السيطرة عليها عام ١٥١٧م وحتى مطلع القرن التاسع عشر في كافة المجالات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية ما جعلها محط انظار القوى الاقليمية و الدولية، وبما انها تشكل العمق الاستراتيجي لمصر فقد فكر واليها محمد علي باشا (١٨٠٥-١٨٤٨م) بضمها الى مشروع دولته الحديثة ممهداً ذلك بالتدخل السياسي ثم العسكري وقد حمل تدخله هذا نتائج خطيرة على المستويين الداخلي و الخارجي للدولة العثمانية ، يسלט البحث الضوء على بدايات التدخلات الاقليمية و الدولية في بلاد الشام وذلك من خلال بحث مسألة السيطرة المصرية عليها وما رافقها من مواقف دولية و تدخلات سياسية و عسكرية في شؤونها خاصة من قبل بريطانيا و فرنسا وروسيا القيصريّة، و التي كانت بداية ما عرف في السياسة الدولية بالمسألة الشرقية والتي لاتزال اثرها قائمة الى الوقت الراهن.

* قسم التاريخ/ كلية التربية/عقرة/ جامعة دهوك .

أولاً- السيطرة المصرية على بلاد الشام ١٨٣١-١٨٤٠

١- اسباب السيطرة المصرية على بلاد الشام:

في أواخر تموز عام ١٨٢٢ فر بشير الشهابي ١٧٨٨-١٨٤٠م حاكم جبل لبنان إلى مصر طالبا اللجوء من واليها محمد علي باشا (١٨٠٥-١٨٤٨م)^(١)، وكان سبب فراره من لبنان انحيازه إلى عبدالله باشا والي صيدا^(٢) الذي كان قد اغضب الدولة العثمانية بنزاعه مع درويش باشا والي دمشق (١٨٢٠-١٨٢٣م)، فصدرت الأوامر بعزل عبدالله باشا عن ولاية صيدا، وعزل بشير عن امانة جبل لبنان، أما عبدالله باشا فلم يرضخ للأمر القاضي بعزله، فصدر أمر السلطان محمود إلى درويش باشا بتوجيه قوة عسكرية وارسالها الى عكا(مركز ولاية صيدا) لإخضاعه والاقتصاص منه^(٣).

وجد محمد علي باشا في هذه الحادثة فرصة ثمينة للتدخل في بلاد الشام، وتوثيق عرى المودة مع بعض ولايتها، واستمالة والي صيدا وأمير ذو نفوذ كبير في لبنان تعتبر خطوة واسعة في

(١) محمد علي باشا: ولي على مصر عام ١٨٠٥م بعد الفوضى التي رافقت خروج القوات الفرنسية الغازية عام ١٨٠١م، واصبح حاكم مصر بلا منازع بعد ان قضى على سلطة المماليك عام ١٨١١م، سيطر على السودان عام ساهم في القضاء على الحركة الوهابية في الحجاز عام ١٨١٨م، وسيطر على السودان عام ١٨٢٠م ثم سيطر على بلاد الشام عام ١٨٣١م وحاول اقامة دولة شبه مستقلة عن الدولة العثمانية واستمر حكمه لمصر و السودان حتى عام ١٨٤٨م. J.C.B. Richmond, Egypt 1798-1952 Her Advance Towards A Modern Identity, Columbia University Press, (New York, 1977),p.50.

(٢) عبدالله باشا: وهو عبدالله باشا بن علي باشا الخزندار وقد كان احد رجال احمد باشا الجزائر (١٧٧٥-١٨٠٤م) والي صيدا الأسبق، تولى على صيدا للمدة (١٨١٩-١٨٣٢م)، وكان شاباً طموحاً، حاول أن يحكم سيطرته على ولاية صيدا. مسعود ظاهر، الانتفاضات اللبنانية ضد النظام المقاطعي، ط١، دار العرابي، (بيروت، ١٩٨٨م)، ص٦٧.

(٣) سليمان ابو عزالدين، ابراهيم باشا في سوريا، تقديم ومراجعة لطيفة محمد سالم، ط١، دار الشروق، (القاهرة، ٢٠٠٩)، ص٨١-٨٥.

سبيل تحقيق أهدافه بالسيطرة على بلاد الشام التي تعد العمق الاستراتيجي لولاية مصر خاصة وان عكا مركز ولاية صيدا كانت تعد بمثابة مفتاح بلاد الشام^(١).

توسط محمد علي باشا لدى الحكومة العثمانية في العفو عن والي صيدا وامير جبل لبنان، فتكلل سعيه بالنجاح. في حين اكرم والي مصر ضيافة وافصح له عن نيته بالاستيلاء على بلاد الشام طالبا دعمه و مساعدته^(٢).

وبعد أيام حضر فرمان من الدولة بالعفو عن عبدالله باشا وبقائه في منصبه وعودة بشير الى جبل لبنان. وفي عام ١٨٢٣م بينما كانت الحكومة العثمانية غاضبة على عبدالله باشا، حاول محمد علي باشا أن يتخذ لنفسه نفوذ في عكا نفسها، فأرسل اليها وفداً برئاسة أحد كبار رجاله مزوداً بمبالغ كبيرة من المال آملاً ان يتمكن من استمالة بعض وجهائها إلى جانبه، وكانت مهمة الوفد في ظاهر الأمر العمل على إزالة أسباب الجفاء ما بين الحكومة العثمانية وعبدالله باشا غير أن عبدالله باشا ارتاب في أمرهم وبدلاً من أن يستقبلهم في المدينة، استقبلهم خارجها، وهناك تلقاهم بالترحاب، واكرم وفادتهم، وفي الوقت عينه حال دون نجاحهم في المهمة السرية التي حضروا من أجلها^(٣).

بدأ محمد علي باشا في التدخل بشؤون بلاد الشام، إذ أمر بشير بتجهيز قوة عسكرية قوامها أربعة الاف مقاتل وارسالها إلى المورة عند صدور الاوامر بذلك لمعونة ابنه ابراهيم باشا ثم أردف هذا الطلب بأخر مثله إلى عبدالله والي صيدا ،وفي سنة ١٨٢٥م أدى التنافس على السلطة إلى استفحال أمر الفتنة في جبل لبنان ما بين حاكمه بشير الشهابي حينئذ وبين صديقه الشيخ بشير جنبلاط كبير مشايخ الدروز في ذلك العهد(١٧٧٥-١٨٢٥م)^(٤)، فنشبت القتال بينهما وترامى خبر هذه الفتنة إلى محمد علي باشا، فكتب إلى عبدالله باشا يستحثه

(١) أبو عزالدین، ابراهيم باشا، المصدر السابق، ص ٨٢؛ محمد رفعت عبد العزيز، الجيش المصري وحروب الشام الأولى ١٨٣١-١٨٣٣م، دراسة في ضوء وثائق عابدين، ط ١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (القاهرة، ١٩٩٩)، ص ٩١

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨١-٨٥.

(٤) محمد خليل الباشا، معجم اعلام الدروز، ج ١، ط ١، الدار التقدمية، (المختارة، ١٩٩٠)، ص ٣٢٥-٣٣٧.

على المبادرة إلى إيجاد بشير بالمقاتلين، ففعل وكان النصر حليف، ثم أرسل الى بشير يعلمه أنه جهز لنجده حملة مؤلفة من ألفي فارس وأربعة آلاف رجل من الجنود النظامية ووعده بإرسال المزيد عند الحاجة، وقد اتخذ من مساعدة بشير ذريعة للتدخل في شؤون بلاد الشام وتمهيدا للسيطرة عليها، من جهة أخرى، كان لموقع بلاد الشام الاستراتيجي بالنسبة لمصر بُعد جغرافي يفصلها عن مركز الدولة العثمانية في آسيا الصغرى بحاجز طبيعي ضخم، هو جبل طوروس الذي يشكل مانعاً قوياً يحمي خلفه بلاد الشام ومصر من محاولات السلطان العثماني، الذي شعر أن محمد علي باشا لن يقبل بأقل من استقلال أسرته في حكم مصر. وكانت بلاد الشام تثير اطماع محمد علي باشا؛ لما فيها من طاقات بشرية كبيرة وموارد اقتصادية قادرة على العمل في إطار زيادة الانتاج، وتنشيط الحياة الاقتصادية والزراعة خدمة لمشروعه في بناء دولة حديثة تضم مصر و الشام.^(١)

٢- الحملة العسكرية المصرية على بلاد الشام ١٨٣١-١٨٤٠م:

شرع محمد علي بمراقبة التطورات السياسية في بلاد الشام منذ وقت مبكر وأخذ يتدخل في شؤونها ويعمل على تقوية نفوذه فيها. وكان يهدف من خلال هذا التدخل السيطرة على بلاد الشام^(٢)، الا ان السلطان محمود الثاني كان في الوقت ذاته ينظر بعين الحذر لازدياد نفوذ محمد علي وبدأ يفكر بالتخلص منه قبل ان يستفحل خطره فحاول أولاً الإيقاع بين محمد علي وابنه ابراهيم باشا دون جدوى^(٣)، ولم يكن باستطاعة السلطان اللجوء إلى استعمال القوة ضده بسبب المشاكل الجسيمة التي كانت تواجهها الدولة العثمانية في الداخل والخارج، ولهذا لم يعبأ محمد علي بموقف السلطان منه عندما قرر ارسال حملته الأولى إلى فلسطين عام ١٨٣١م، بيد ان طموحه للسيطرة على بلاد الشام اصطدم بأطماع حليفه السابق عبدالله باشا والي صيدا

(١) أبو عز الدين، ابراهيم باشا، المصدر السابق، ص ٨٥.

(٢) أنطوان ضاهر العقيقي، ثورة وفتنة في لبنان صفحة مجهولة من تاريخ الجبل من ١٨٤١ إلى ١٨٧٣، نشرها يوسف إبراهيم يزبك، (د.م، ١٩٣٨)، ص ١٩.

(٣) عباس أبو صالح، تأريخ الإمارة الشهابية في جبل لبنان ١٦٩٧-١٨٤٢، دار سرثي برس، (بيروت، ١٩٨٠)، ص ٢٤٤.

(١)، وعلى الرغم من استعداد عبدالله باشا لمواجهة حرب محتملة مع محمد علي، فقد استطاع الاخير تجريد حملته الاولى على فلسطين بقيادة ابنه ابراهيم باشا. ووصلت القوات المصرية مدينة حيفا في خريف عام ١٨٣١م واستولت عليها دون أية مقاومة، واتخذت منها قاعدة للانطلاق الى عكا (٢).

اتجهت القوات المصرية صوب عكا و بدأت بضرب الحصار العسكري عليها بعد اجتياح العريش وبافا، بوصفها مفتاح بلاد الشام، وقد استعصت عكا على القوات المصرية بسبب المقاومة الكبيرة التي أبداها عبدالله باشا والي صيدا، وعندما تعذر على القوات المصرية اقتحامها، ارتأى ابراهيم باشا الاستيلاء على باقي الولايات الشامية ومن ثم التفرغ لعكا، فاستولى على الساحل الشامي بأكمله، ولم يتسنى لإبراهيم باشا السيطرة على عكا حتى يوم ٢٧ أيار عام ١٨٢٣م. اذ استسلمت حاميتها العسكرية مع عبدالله باشا والي صيدا للقوات المصرية، واطلق سقوط عكا على يد ابراهيم باشا في داخل بلاد الشام فسيطر على دمشق في ١٣ حزيران عام ١٨٢٣م ثم سيطر على مراكز حمص وحماة وحلب في ٨ و ١٥ تموز عام ١٨٣٢م، ثم باشر ابراهيم باشا تقدمه باتجاه الاناضول حتى وصل إلى كوتاهية على مقربة من العاصمة العثمانية اسطنبول، اذ تمكن من دحر القوات العثمانية والسيطرة عليها في ٢ شباط عام ١٨٣٣م وقد توقف في كوتاهية بناءً على طلب والده حيث اتفق على عقد الهدنة بينه وبين الدولة العثمانية (٣).

حاول السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) في بادئ الأمر تدارك خطر القتال مع محمد علي والي مصر عن طريق التفاوض، لكن الاخير رفض وقف القتال واستمر في تنفيذ خطته العسكرية لإحكام سيطرته على بلاد الشام، غير السلطان لم يقف مكتوف اليدين امام فشل المفاوضات بل اضطر لمواجهة بما يتوفر له من قوات عسكرية، عين السلطان والي الرقة والياً على حلب وسواحل بلاد الشام كما عين والياً جديداً على طرابلس الشام وامرهما

(١) ظاهر، المصدر السابق، ص ٦٧.

(٢) أبو صالح، تاريخ الإمارة الشهابية، المصدر السابق، ص ٢٤٤.

(٣) احمد محمد نوري احمد العالم، الإمارة الشهابية في لبنان ١٦٩٧-١٨٤٢ دراسة تاريخية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، (الموصل، ٢٠١٢)، ص ١٧١.

بالاستعداد لمجابهة الحملة العسكرية المصرية، وقد أدرك كل من محمد علي باشا والعثمانيين أهمية الموقف اللبناني في هذا الصراع فقد حاول والي طرابلس استمالة الأمير بشير إلى الجانب العثماني، لكن وجود القوات المصرية في المناطق الساحلية قريباً من عاصمة الامارة الشهابية جعل الأمير بشير في موقع صعب . وأثر البقاء في الجانب المصري وعمل خلال تلك الحرب على تأمين طرق المواصلات لجيش المصري في بلاد الشام وحفظ الأمن في جبل لبنان^(١).

٣- الادارة المصرية في بلاد الشام:

اصبح ابراهيم باشا حاكماً عاماً على جميع الولايات الشامية ، وسائر فلسطين حتى سيناء في مصر و بسبب المهمات العسكرية الموكل بها فقد عين الامير بشير الشهابي مديراً عاماً للمصالح الحكومية في بلاد الشام يختم الاوراق التي يجب ختمها عنه، وقد فضل ابراهيم باشا قيادة الجيش على القيام بالمهام الإدارية ، وقد عرض منصب حاكم بلاد الشام على الامير بشير ولكنه اعتذر بسبب انشغاله بالحروب الدائرة في بلاد الشام ، عندئذ كتب إلى والده قائلاً: "لا يمكن ان اقوم بإدارة البلاد لبعد الشقة بينها وبين ارضنا، ولكثرة اعماله العسكرية"^(٢).

ثم عاود الكتابة إلى والده يلح عليه أن يعين شخصية مرموقة لإدارة بلاد الشام، ورأى ان يُكلف لهذه المهمة محمد شريف باشا وهو من الشخصيات الادارية التي اوكل اليه محمد علي باشا الكثير من الامور الادارية في القاهرة، ليكون حاكماً على جميع ولايات الشام وامورها المدنية عدا جبل لبنان، وقد جعل محمد شريف باشا مقره في دمشق، وربطت بلاد الشام بالقاهرة بصورة مركزية، ووصف محمد شريف باشا بأنه صاحب خبرة ادارية واسعة وناجحة وكان يرفع الأمور الادارية إلى ابراهيم باشا وهذا بدوره كان يرفعها إلى مصر^(٣).

(١) ابو صالح، تاريخ الامارة الشهابية المصدر السابق، ص ٢٤٥.

(٢) النواصرة قاسم محمد أحمد ، الموقف البريطاني والفرنسي من الحكم المصري لبلاد الشام ١٨٣١-١٨٤١م ، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى ، (دمشق، ٢٠٠٨م)، ص ٥٢.

(٣) لطيفة محمد سالم، الحكم المصري في بلاد الشام ١٨٣١-١٨٤١م، ط٢، مكتبة مدبولي، (القاهرة، ١٩٩٠م)، ص ٧٠؛ النواصرة، المصدر السابق، ص ٥٣.

استمر النظام الإداري على ما هو عليه، ما عدا بعض التعديلات الإدارية الطفيفة؛ فمثلاً سُحبت إدارة عكا من صيدا، واتبعت لشريف باشا مباشرة الذي كلف بإقامة النظام العام، وأجراء الحق والعدل، ومراعاة العادات والتقاليد، والإنصاف في تحصيل الأموال، وحماية أصحاب الحاجة، وغير القادرين، ورفع الأعباء عنهم، والمساواة بين أفراد المجتمع فقيرهم وغنيهم ورفع الأذى والضرر، ومعاينة المنحرفين وتقويمهم. ووجد إلى جانب الحاكم العام المتسلم الذي كانت له سلطات واسعة، ويتحكم بالإشراف الإداري الكامل على الموظفين، ويتدخل في دقائق الأمور، ويمارس سلطة قضائية، وهو بمثابة محافظ أو حاكم للمقاطعة، وقد خصصت الحكومة المصرية الرواتب للمتسلمين من خزينة الدولة في مصر، وكانت الإدارة المصرية تراقب أداء المتسلمين عندما كان يثبت فساده فإنه يعزل ويعين آخر في مكانه، ولم تقتصر المحاسبة على المتسلمين بل امتدت إلى أصحاب المناصب الأخرى، وفرضت بحقهم عقوبات شديدة، ولم يعف أي صاحب سلطة من العقوبة إذا ثبت فساده وتعديه على الحقوق العامة، وقد منحت الحكومة المصرية رواتب عالية لتمنع موظفيها من قبول الرشايا و الوقوع في الفساد الإداري، ثم عملت الحكومة المصرية على مكافحة اختلاس الأموال العامة الذي كان داءً مستشرياً، فحاولوا القضاء عليه بدءاً من المتسلمين وما دونهم^(١).

كان الكتبة أكثر موظفي الدولة فساداً؛ لتوليتهم العمليات الخاصة بالحسابات المالية، والتي تهيئ لهم سبل الاختلاس، فكان لابد من مراقبتهم مراقبة شديدة، وقد امتدت يد الإدارة المصرية إلى شيوخ المناطق والقرى، فكانت تثبتهم في مناصبهم وتعزلهم مراعاةً لرغبة السكان^(٢).

كما أقامت الحكومة المصرية مجالس شورى في المدن، والقرى الكبيرة، والحواضر الشامية، ومثلوا فيها أبناء الشعب بفئاته وطوائفه المختلفة حيث ضم مجلس دمشق واحداً وعشرين عضواً كانوا يمثلون كل الطوائف، وكبار تجارها، وأعيانها وكان مجلس شورى بيروت مكوناً من اثني عشر عضواً من كبار أعيانها وتجارها مناصفةً بين المسلمين والمسيحيين وقد امر

(١) رياض غنام، المقاطعات اللبنانية في ظل حكم الأمير بشير الثاني ونظام القائمقاميتين ١٧٨٨-١٨٦١م، ط١، دار بيلسان، (بيروت، ١٩٩٨م)، ص١٠٧؛ النواصرة، المصدر السابق، ص٥٣، ٥٤.
(٢) النواصرة، المصدر نفسه، ص٥٧.

محمد علي باشا بإرسال محاضر مجلس دمشق وحلب اليه يومياً ليكون على اطلاع يومي بمجريات الامور في بلاد الشام^(١).

ومن الملاحظ ان ابراهيم باشا كان يرغب في اشراك ابناء الشام في الحكم حتى لا يكون الحكم المصري استبدادياً ، لذلك توزعت المناصب الادارية على ابناء البلاد حتى يتحملوا مسؤولية الحكم لان اهل البلاد اعرف بأمرهم من غيرهم، فسعى الى ايجاد ادارة فاعلة تخدم الجميع من جهة، ومن جهة اخرى فإن اجراءات الردع و العقوبات بحق المذنبين كان الهدف منها اظهار الادارة المصرية بمظهر افضل من الحكم العثماني السابق^(٢).

٤- موقف اهالي بلاد الشام من السيطرة المصرية:

لم يكن محمد علي باشا والي مصر غافلاً عما كان يحيط به من مخاطر تهديد سلطته على بلاد الشام خاصة من جانب الدولة العثمانية التي كانت تسعى جاهدة لإعادة سلطتها السابقة على هذه المنطقة، فعمد إلى اتخاذ سلسلة من الاجراءات عدها ضرورية لتقوية جيشه، عن طريق فرض التجنيد الإلزامي وجمع السلاح من أهالي البلاد، وفرض الضرائب الباهظة عليهم لتأمين المرتبات لجنده، وهذا ما يجعل سلطته فيها تواجه الكثير من الصعوبات تمثلت بكثرة الانتفاضات والثورات التي قامت ضد حكمه في بلاد الشام. وقد وجدت هذه الانتفاضات والثورات من يدعمها عن طريق تحريض الاهالي على الثورة ولاسيما من قبل الدولة العثمانية وبريطانيا، بدأت الانتفاضات بين القبائل الرحل في بادية الشام وحوران وشرق الاردن منذ اوائل عام ١٨٣٤م، وسرعان ما انتشرت في نابلس والقدس ثم عمت كامل فلسطين في تموز واب عام ١٨٣٤م^(٣).

عهدت الحكومة المصرية إلى بشير الثاني امر اخماد هذه الانتفاضة، وحاول المنتفضون استمالة ابنه خليل الامر الذي جعل محمد علي باشا يشك في نوايا بشير الثاني

(١) سالم، المصدر السابق، ص٧٤، ١٧٥.

(٢) النواصرة، المصدر السابق، ص٥٨.

(٣) فندي أبو فخر ، انتفاضات الشام على مظالم محمد علي باشا ١٨٣١-١٨٤٠ ، ط٢ ، دار الطليعة الجديدة،(دمشق، ٢٠٠٦)، ص١١؛ العالم، المصدر السابق، ص١٧٦.

، إلا ان الاخير اثبت إخلاصه لحليفه اذ سار على رأس قوة عسكرية مؤلفة من (٥٠٠) مقاتل في ١٦ تموز عام ١٨٣٤م، اتجه بها إلى صفد وتمكن من اخماد الانتفاضة فيها والقبض على زعمائها، وعين حاكماً عليها من قبله ثم واصل زحفه إلى عكا وطبريا والناصره (١).

اندلعت انتفاضة اخرى في طرابلس وعكا في تموز عام ١٨٣٤م اذ هم الاهالي بالاعتداء على الحامية المصرية في طرابلس حتى اضطرت للانسحاب إلى الساحل بانتظار التعزيزات، فأمر محمد علي باشا بشير الثاني بإرسال خليل مع قواته إلى طرابلس لإخماد الانتفاضة فيها وما ان وصل الاخير إلى طرابلس حتى انضمت إلى صفوفه الحامية المصرية فاحموا الانتفاضة وقبضوا على قادتها فيما واصل خليل والحامية المصرية التقدم شمالاً إلى عكا حيث قضى على الانتفاضة وقبض على زعمائها، وبعدها عاد خليل مع قواته إلى جبل لبنان. و جرت عدة محاولات من الدولة العثمانية لاستمالة بشير الثاني واغرائه بالتخلي عن دعم حليفه، إلا انه لم يعر اهتماماً لذلك وصمم على موقفه المؤيد والداعم للسيطرة المصرية على بلاد الشام. وفي آب عام ١٨٣٤م، اندلعت انتفاضة اخرى في اللاذقية وبانياس وطرابلس، اذ اخذ المنتفضون يهاجمون الحاميات المصرية والممتلكات الحكومية في تلك المناطق وقد امر ابراهيم باشا حليفه بشير الثاني ان يوجه قوة عسكرية من لمقاتلين لتعزيز القوات المصرية الموجودة هناك، فارسل ابنه خليل مع قواته إلى اللاذقية اوائل تشرين الثاني عام ١٨٤٣م. وتمكن بالاشتراك مع الحامية المصرية الموجودة فيها من القضاء على انتفاضة اللاذقية وبانياس وطرطوس ١٨٣٥م (٢).

تمكن ابراهيم باشا في نفس العام من اخماد معظم الانتفاضات التي قامت ضده في بلاد الشام، واستطاع ان يحقق اهدافه بتجريد السكان من السلاح واخضاعهم لحكمه الا انه كان قد استثنى مؤقتاً سكان الامارة الشهابية من امر التجنيد الالزامي ونزع السلاح ولم يكن بوسعه ان يطبق قانون التجنيد على هؤلاء قبل غيرهم، اذ كان قسماً كبيراً منهم عداد المجندين في قواته اذ شاركوا بقيادة بشير الثاني إلى جانب القوات المصرية في السيطرة على بلاد الشام، وساهموا في اخماد الانتفاضات التي نشبت ضد الحكم المصري عام ١٨٣٤م، كان ابراهيم

(١) العالم، المصدر نفسه، ص ١٧٩.

(٢) فندي ابو فخر، انتفاضات الشام، المصدر السابق، ص ١٦٧.

باشا يخشى من اندلاع ثورة يقوم بها الدروز ضد حكمه في جبل لبنان، لذا طلب في صيف عام ١٨٣٥م من بشير الثاني عدداً كبيراً من شباب الدروز لغرض تجنيدهم في قواته اسوة ببقية اهالي بلاد الشام، لم يلق هذا الطلب استحسان مشايخ الدروز رغم سعي بشير الثاني الحثيث من اجل اقناعهم، الا ان ابراهيم باشا كان مصراً في موقفه و ارسل مندوباً من طرفه إلى بشير الثاني يحثه على جمع ما هو المطلوب من المجندين، ابلغ بشير الثاني الحكومة المصرية برفض الدروز للخدمة الالزامية ورفع له عدد من الرسائل التي تلقاها من عدد من مشايخهم بهذا الشأن، وعلى الرغم من ذلك لم يتغير موقف ابراهيم باشا من هذه المسألة، فقرر نزع السلاح من الدروز بالقوة ومن ثم اجبارهم على الالتحاق في صفوف قواته، وارسل تهديداً إلى اهالي جبل لبنان من الدروز يتوعدهم فيه بسحق معقلهم قرية الشوف في حال عدم التحاقهم في صفوف قواته (١).

أمام هذا التهديد قام بشير الثاني بإرسال ابنائه إلى قرى الشوف لجمع السلاح ، ثم سرعان ما وصل ابراهيم باشا على رأس قوة عسكرية إلى قرية بيت الدين إذ استقبله بشير الثاني بحفاوة واطلعه على ما تم انجازه في عملية نزع السلاح من الدروز، اذ انهم قد بدوا بتسليم اسلحتهم تحت التهديد وما ان تم نزع الاسلحة منهم حتى امر ابراهيم باشا بنزع سلاح المسحيين ايضاً ثم طلب من بشير الثاني تقديم قوة مجندة من الدروز للخدمة العسكرية تمكن ابراهيم باشا من اقرار الأمن في ربوع بلاد الشام، اذ شهدت البلاد هدواً نسبياً خيم عليها مدة سنتين ونصف تقريباً، وبحلول عام ١٨٣٧م ارتاب ابراهيم باشا من التحركات العثمانية على الحدود الشمالية لبلاد الشام الامر الذي دفعه إلى التشدد في تطبيق التجنيد الالزامي، اذ طلب في اجتماع حضره متسلمو المديرية في عكا تجنيد رجل من كل عشرة رجال من السكان بأقصى سرعة ممكنة، الأمر الذي ادى إلى تجدد الانتفاضات ضد الحكم المصري (٢)، وسرعان ما اندلعت الانتفاضات بحوران في أب عام ١٨٣٧م وامتدت جنوباً لتشمل وادي التيم في نيسان ١٨٣٨م وقد التحق بهذه الانتفاضات عدد من مشايخ الدروز في الشوف كالشيخين حسن جنبلاط، وناصر الدين العماد، وشبلي العريان وتكدت القوات المصرية الكثير من

(١) أبو عز الدين، المصدر السابق ، ص١٦٥.

(٢) العالم، الامارة الشهابية، المصدر السابق، ص١٨١.

الهزائم على ايدي المنتفضين في حوران ووادي التيم، ويهدف القضاء على هذه الانتفاضة اصدر محمد علي باشا والي مصر امراً يقضي بتوزيع السلاح على نصارى جبل لبنان وتجنيدهم وارسالهم للانضمام في صفوف القوات المصرية الموجودة في وادي التيم^(١).

وباشر بشير الثاني بالعمل على التنفيذ بالرغم من علمه المسبق بأنها ستؤدي إلى انقسام رعاياه في لبنان على اساس طائفي، اذ قام بتجنيد اربعة الاف من النصارى وارسالهم للمساهمة في اخماد انتفاضة الدروز في وادي التيم بقيادة خليل، وامر بهدم كل قرية او بيت يلتحق ابناؤه بتلك الانتفاضة وقد كانت تلك الاجراءات التي اتخذها بشير الثاني ضد الدروز تمثل خطأ فادحاً، تكرر الانقسام السياسي في لبنان على اساس طائفي مذهبي، فزرع بذلك بذوراً للفتن الاهلية الطائفية التي نشبت في جبل لبنان لاحقاً. وتمكن ابراهيم باشا من القضاء على الانتفاضات التي نشبت ضده في حوران ووادي التيم بعد تسعة اشهر من اندلاعها، وقد توج نجاح ابراهيم باشا بنجاح آخر اذ تمكن من الانتصار على القوات العثمانية في معركة نزيب (نصيبين) ، شمال حلب في ٢٤ حزيران عام ١٨٣٩م، وقد توفي على اثرها السلطان العثماني محمود الثاني وتولى بعده ابنه السلطان عبدالمجيد الاول عرش الدولة العثمانية (١٨٣٩-١٨٦١م) وقد انحاز قائد الاسطول العثماني احمد فوزي باشا الى الجانب المصري بعد خسارة العثمانيين المعركة ، وهذا ما دعا الدول الأوروبية إلى ضرورة التدخل لوضع حد لسيطرة محمد علي باشا على مصر وبلاد الشام قبل استفحال خطره للحفاظ على مصالحها فشكل ذلك بدايت ما عرف بالمسألة الشرقية^(٢).

ثانياً - موقف الدول الأوروبية من السيطرة المصرية على بلاد الشام:

شددت الحكومة المصرية بعد عام ١٨٣٣م من اجراءاتها المالية في بلاد الشام وخاصة الضريبية بسبب تكاليف الحرب، فأصبحت الضريبة على الأشخاص تجبى من أسر الأموات، وغالباً ما كانت السلطات تطالب اصحاب المزارع التي لم تكد تأتي اكلها بدفع الضرائب ضريبة، كما و اثر تجنيد العمال الأكثر قدرة على العمل تأثيراً سلباً على اقتصاد الفلاحين

(١) غنام، المصدر السابق، ص ١٠٨.

(٢) العالم، المصدر السابق، ص ١٨٢.

وإعمالهم الحرفية. وكان الرجال الذين بلغوا السن القانونية يهربون إلى الجبال والصحاري في كل مرة يجري فيها السوق إلى التجنيد، كما اغلقت الورشات والدكاكين، وبدأ التضيق على الناس في الاسواق و الشوارع و المساجد (١).

وانقلب التجنيد الاجباري إلى كارثة مفزعة، كما كان الفلاحون يعانون الويلات من بناء المنشآت العسكرية التي تحتاجها القوات المصرية ، ومن نقل الامدادات للجيش المصري مما كان يضطر الفلاحين للانقطاع عن العمل لمدة شهرين او ثلاثة (٢).

وكان عبء الاتاوات والتجنيد يرهق أكثر ما يرهق كاهل الفلاحين والفئات الدنيا في المدينة، وكان سبباً في قيام العصيان في بعض الجهات، وفي ربيع عام ١٨٣٤ م نشب العصيان الاول في فلسطين كردة فعل لطلب الاسلحة والجنود، واستلزم لإخماده استدعاء الجيوش مصر، وفي السنة نفسها أعلن العصيان في المناطق الشرقية الشمالية للبلاد، ثم جرى عصيان طائفة النصيرية في خريف العام نفسه، وقد اخمدت هذه الحركات بعنف شديد. وفي خريف عام ١٨٣٧ م اعلن دروز حوران عصيانهم الذي كلف الجيوش المصرية جهوداً كبيرة للقضاء عليه في صيف العام التالي، وقد اثرت حركت الدروز تأثيراً كبيراً على مجرى حوادث عام ١٨٤٠، وفي ربيع العام ١٨٤٠ م نشب العصيان في لبنان، وقد لعبت الاحداث السياسية دوراً كبيراً في توتر الوضع في الولايات الشامية، ولم تكن معاهدة كوتاهية التي عقدت بين السلطان محمود الثاني ومحمد علي باشا في عام ١٨٣٣ م لترضي أياً من الطرفين (٣)، وتمكن محمد علي من الحصول على حق الحكم المتوارث لا في مصر فحسب بل في السودان وبلاد الشام ايضاً، ولم يكن باستطاعة السلطان العثماني ان يرضي بفقدان بلاد الشام من يده، فضلاً عن

(١) سيميليا نسكايا، الحركات الفلاحية في لبنان، ط١، دار الفارابي، (بيروت، ١٩٦٨م)، ص٧٤.

(٢) رينية قطاوي بك وجورج قطاوي ، محمد علي وأوروبا ، ترجمة وتقديم الفريد بلوز ، ط٢ ، دار الكتب والوثائق القومية ، (القاهرة، ٢٠٠٨) ، ص١٢٦؛ نسكايا، المصدر السابق، ص٧٥.

(٣) كان من اهم بنود المعاهدة، اخلى الاتاوضول من قوات محمد علي باشا ،ومنحه منصب الولاية على مصر و السودان و بلاد الشام و ادنة، ولم يكن السلطان العثماني يفكر قط باستمرار هذه المعاهدة التي ضُمت بموجبها سبعة ولايات لوالي واحد، كما لم يكن محمد علي باشا ليرضى بالوقوف عند هذا الحد. للمزيد من التفاصيل ينظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان و محمود الانصاري ، ج٢، ط١، مؤسسة فيصل للتمويل، (استانبول، ١٩٩٠)، ص١٧.

ذلك فان تمرد الوالي المصري انزل ضربة بسياسة محمود الثاني الداخلية، وقد حرضت بريطانيا السلطان العثماني على الحرب مع والي مصر^(١)، لأنها كانت عائقاً امام خططها التوسعية في الشرق الأدنى وقد اخذت تبحث عن السبل التي تمكنها من اجبار محمد علي عن التخلي عن نظام الاحتكار المطبق في مصر والذي يعرقل نفوذها إلى هذه البلاد، وربما كان العامل الرئيسي المحدد لخطوات بريطانيا السياسية تجاه والي مصر هو عدم الرضا عن تأثير فرنسا على الحاكم المصري^(٢).

كانت الحكومة البريطانية تهدف من وراء تأييدها للسلطان العثماني إلى افساح المجال امامها لتؤثر بشكل فعال في سياسة الدولة العثمانية، وكانت ترى في هزيمة محمد علي السبيل إلى وضع حد للتدخل الفرنسي في مصر و بلاد الشام ، وفي ربيع عام ١٨٣٩ بدأت على الحدود الشامية صدامات مسلحة بين جيوش السلطان ومحمد علي باشا، وزادت حدة الهيجان الشعبي داخل البلاد، وكانت دمشق وحلب وطرابلس وغيرها من مدن الولايات السورية في وضع يمكن ان يؤدي إلى العصيان فيما لو انهزم الجيش المصري، ولكن القوات المصرية تمكنت من احراز النصر الحاسم في موقعة نصيبين، وفي تموز عام ١٨٣٩ سلم أمير البحر التركي الذي شارك في العمليات الحربية اسطوله إلى محمد علي واصبحت الجيوش المصرية على مقربة من العاصمة اسطنبول كما ذكر سابقا^(٣).

تتناقض مصالح الدول الاوربية الكبرى بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية من وجود حكومة مركزية قوية تحكم مصر وبلاد الشام في آن واحد، وذلك لان هذه الدول كانت تتقرب ضعف الدولة العثمانية لحين وصول الفرصة المناسبة لاقتسام اراضيها، لذا كانت تتقرب الحملة العسكرية المصرية على بلاد الشام منذ انطلاقتها، كل بحسب ما تقتضي مصالحه لذا اختلفت سياسة بريطانيا عن سياسة فرنسا وروسيا تجاه هذه المسألة وكذلك سياسة هذه الدول فيما بينها^(٤).

(١) أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، المصدر السابق، ص ص ١٧-١٨.

(٢) نسكايا، الحركات الفلاحية، المصدر السابق، ص ٧٦-٧٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٧، ٧٨.

(٤) رينيه قطاوي بك وجورج قطاوي، المصدر السابق، ص ١٢٦.

بدأ التدخل الاوربي الفعلي في هذه المسألة عندما حاول السلطان عبدالمجيد الاول (١٨٣٩-١٨٦١م) التفاوض مع محمد علي باشا لاسترجاع الاسطول العثماني، فاذا بالدول الاوربية ترسل مذكرة لكل من الطرفين توصيهم بعدم ابرام أي اتفاق من دون معرفتها المسبقة بمضمونه، وقد شعر والي مصر بأن مطامع الدول الاوربية في المشرق لن تدعه يستغل ثمرة انتصاراته في بلاد الشام^(١).

فأخذ يستعد لجميع الاحتمالات بما فيها التصدي العسكري لمحاولة اقصائه عن بلاد الشام، فشرع في تحصين المواقع العسكرية المهمة في مصر وبلاد الشام، وطلب من ابنه ابراهيم باشا ان يجمع الحاميات العسكرية المتفرقة ويقوم بحشدها في المواقع الاستراتيجية وتوقع السكان في بلاد الشام عودة محمد علي باشا إلى التشديد في تطبيقاته التجنيد الإلزامي، وفي جبل لبنان شاعت الانباء بان ابراهيم باشا سيعمل على تجنيد جميع اهالي الامارة الشهابية من مسلمين ودروز ونصارى^(٢)، لذا اتفق الدروز والنصارى في ٢٧ أيار عام ١٨٤٠م في قرية دير القمر على التصدي لأية محاولة يقوم بها ابراهيم باشا من اجل تجنيدهم، وكان الأخير قد بلغه هذا الاتفاق فكتب إلى حليفه بشير الشهابي يطلب منه تجريد نصارى لبنان من السلاح الذي كان قد وزع عليهم اثناء انتفاضة وادي التيم عام ١٨٣٨م^(٣).

١- الموقف البريطاني من السيطرة المصرية على بلاد الشام ١٨١٣-١٨٤٠م :

كانت حرية المواصلات مع الهند عبر الاراضي العثمانية حجر الاساس في سياسة بريطاني في هذه المنطقة ، فكان عليها ان توفر أكبر قدر من الامان لهذه الطريق المارة عبر بلاد الشام، وقد عملت بريطانيا خلال الثلاثينيات من القرن التاسع عشر على تعزيز موقفها في مناطق أخرى من الشرق، ولاسيما في الخليج العربي، والعراق، واعتبر نشاطها هذا دلالة على اهتمامها في حماية طريق الهند التجاري^(٤).

(١) العالم، الإمارة الشهابية، المصدر السابق، ص ١٨٣.

(٢) ابو عز الدين، المصدر السابق، ص ٢٤٦.

(٣) مجهول (المؤلف)، مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سوريا ، تحقيق أحمد غسان سبانو ، دار

قنبيية ، (دمشق ، د.ت.)، ص ١٢٢-١٢٣.

(٤) النواصرة، المصدر السابق ، ص ٩٣.

وكان لبريطانيا مصالح اقتصادية في الدولة العثمانية، التي اصبحت سوق مهمة للصادرات البريطانية، هذه المزايا سوف تفقدها في حال تدخل محمد علي باشا في بلاد الشام، وتطبيقه النظام الاحتكاري على التجارة الخارجية^(١)، وبرنامجها الخاص بالتصنيع، ولذلك فان كل مشروعات الاستقلال الاقتصادي المصري ستتضارب بشكل مباشر مع المصالح البريطانية، وخلال الفترة التي بدأ بها التدخل المصري في بلاد الشام، ومع تقدم القوات المصرية فيها لم تكن بريطانيا قد أعلنت موقفها بعد، لانشغالها بأوضاعها الداخلية، ورغم ذلك فقد اوضح القنصل البريطاني في الاسكندرية باركر (١٨٢٥-١٨٣٣م) منذ بداية سنة ١٨٣٢م^(٢).

رغم ان بريطانيا لم تعلن موقفها من الأزمة، فقد كان لها مصلحة كبيرة في المحافظة على الإمبراطورية العثمانية، مما يشكل سداً منيعاً امام الاطماع الروسية فيها^(٣).

شكلت بلاد الشام اهمية لبريطانيا، بوصفها طريق اتصال حيوي بينها وبين وممتلكاتها في الهند، لذلك كانت تريد حماية هذه المنطقة من مشاريع التوسع الروسي، وضرورة إيقاف هذا التوسع عند بحر قزوين. بحيث لا يتعداه إلى المناطق الآسيوية الشرقية من الامبراطورية العثمانية، فتبقى البلاد التي يحكمها محمد علي باشا ضمن منطقة نفوذ البريطاني الخاص و المحظور على أي دولة لاقترب منها، وكان باركر القنصل البريطاني في بلاد الشام قد اعلن عن دهشته لانتصارات ابراهيم باشا، ورفض الذهاب لزيارة محمد علي باشا وتهنئته بسقوط عكا بيد قواته، وكان هذا التصرف الشخصي من جانبه قد اثار حفيظة وزارة الخارجية البريطانية^(٤). مما جعل بالمرستون وزير الشؤون الخارجية البريطاني يبعث برسالة إلى باركر بتاريخ ١٣ حزيران عام ١٨٣٢م، يوبخه فيها ويحثه على تعجيل خطة الحكومة البريطانية نحو محمد علي باشا، وكانت السياسة البريطانية تجاه التقدم المصري في بلاد الشام غير واضحة، وامامها سبيلان، اما ان تدع محمد علي باشا يؤسس دولة قوية، للوقوف ضد الاطماع

(١) رينيه قطاوي بك وجورج قطاوي، المصدر السابق، ص ١٠٦-١١٠.

(٢) ابو عزالدين، ابراهيم باشا، المصدر السابق، ص ٢٤٠.

(٣) النواصرة، المصدر السابق، ص ٩٤.

(٤) رينيه قطاوي بك وجورج قطاوي، المصدر السابق، ص ١٣٥.

الروسية في المنطقة، واما السعي للحفاظ على ارضي الدولة العثمانية لتظل الحاجز بينما تسعى هي الى هدم الدولة المصرية الناشئة^(١).

كان التردد يساور وزير الشؤون الخارجية البريطاني فيما إذا كان قيام دولة فتية في مصر وبلاد الشام، اقرب لمصالح دولته من بقاء الدولة العثمانية، وفي حقيقة الامر فان الحكومة البريطانية لم تدرك خطورة الوضع في بلاد الشام والاناضول رغم التحذيرات المتكررة من السفير البريطاني لدى اسطنبول، الذي اوضح ان هناك امكانية لحدوث تحالف روسي عثماني لاحتواء خطر التوسع المصري^(٢).

وفي بداية عام ١٨٣٢م استتجد السلطان العثماني بالقوى الاوربية العظمى، في حين سارع القيصر الروسي نيكولا الأول (١٨٢٥-١٨٥٥) بتقديم بعض المساعدة، لكن قبول المساعدة من جانب روسيا وحدها يُعد مخاطرة شديدة مع حاجة الدولة العثمانية لهذه المساعدة، وكان السلطان العثماني قد طلب من بالمرستون الدعم والمساندة ضد والي مصر بعد الهزيمة التي لحقت به في بلاد الشام، لكن بالمرستون كان حذراً ولم يكن مستعداً للمخاطرة بسبب وجود خلاف بين فرنسا وروسيا^(٣)، فضلا عن ذلك فان الكثير من البريطانيين شعروا بان الدولة العثمانية كانت خاسرة. ورغم هذه العقبات فقد كان السلطان يفضل المساعدة من جانب بريطانيا، وكان السلطان العثماني يدرك سياسة الدول الاوربية لكنه كان مضطراً لقبول مساعدتها، وكان السلطان يتجه بأنظاره نحو بريطانيا وروسيا، طالما ان فرنسا كانت تتصح الطرفين باللجوء إلى الحل السلمي، لذا ارسل مبعوثه نامق باشا إلى بريطانيا للاتفاق على الدخول في حلف الا انها رفضت تقييد نفسها بأي اتفاق خطي مع الدولة العثمانية^(٤).

(١) عمر عبدالعزيز عمر، تاريخ لبنان الحديث ١٥١٦-١٩١٥م، ط١، دار النهضة، (بيروت، ٢٠٠٤م)، ص١٠٢.

(٢) النواصرة، الموقف البريطاني الفرنسي من الحكم المصري، المصدر السابق، ص٩٦.

(٣) عبدالمجيد عبدالملك، ساحل بلاد الشام والصراعات الدولية، ج٢، ط١، دار بيسان، (بيروت، ٢٠٠٧م) ص٢١٦.

(٤) النواصرة، المصدر السابق، ص٩٧.

من جانب اخر اجتمع السلطان العثماني مع مستشاريه لبحث الوسيلة التي توقف ابراهيم باشا عن تقدمه باتجاه الاناضول، وكان لابد من مشاركة الدول العظمى في المحافظة على الوضع القائم، ومنع قوات ابراهيم باشا من دخول العاصمة العثمانية او تهديدها^(١).

ارسلت الدول الاوربية مبعوثا يطالب محمد علي باشا بالانسحاب من بلاد الشام وتسليم اسطوله للسلطان وتخفيض جيشه إلى عشرين الف مقاتل، وبعد مباحثات بين الجانبين اذعن محمد علي باشا لأوامر السلطان العثماني حيث اوقف القتال كدليل على حسن نيته، وسبق ان اعلنت روسيا على لسان سفيرها في اسطنبول انها ستكون مضطرة إلى الاشتراك في القتال إلى جانب الدولة العثمانية اذا اصر محمد علي باشا على موقفه، وتحركه شمالاً باتجاه العاصمة العثمانية، وكانت روسيا تراقب زحف القوات المصرية بقيادة ابراهيم باشا نحو الأناضول وامكانية تدخلها لوقف الزحف المصري شمالاً^(٢).

كرر محمد علي باشا على مسامع القنصل الروسي في الاسكندرية انه لا يريد انتهاك سلطة السلطان العثماني ، وذلك بعد انتصاراته الاخيرة التي فتحت الطريق امامه إلى اسطنبول وان محمد علي باشا سيعطي تعليمات جديدة لابنه ابراهيم باشا عندما يسيطر على ارضة بأن يتوقف هناك، ووعده بأن لا يسير بجيشه إلى اسطنبول الا بناءً على قرار يتخذه سائر علماء المدن المقدسة في الامبراطورية العثمانية، عند ذلك قامت الحكومة البريطانية بإرسال وفد رسمي إلى السلطان العثماني للتعبير عن مساندتها له معلنة ان سفنها الحربية قد تحركت نحو البحر المتوسط، وان هناك مزيداً من الوقت لعقد الصلح بين الطرفين^(٣).

وبدت رغبة السلطان العثماني بالاستناد إلى دولة قوية، لرد خطر محمد علي باشا، لكنه في الوقت نفسه كان يخشى مطامع روسيا في مضائق الدردنيل، والبسفور، ورغم ذلك فقد كلف الباب العالي ناظر الخارجية محمد رشيد باشا بمقابلة السفير البريطاني لدى اسطنبول في ١١ آب سنة ١٨٣٢م، وابلغه رغبة الباب العالي بالمساعدة العسكرية ضد محمد علي باشا^(٤)، كان

(١) عبدالملك، المصدر السابق، ص ٢١٧.

(٢) رينيه قطاوي بك وجورج قطاوي، محمد علي وأوروبا، المصدر السابق، ص ١٢٨.

(٣) عبدالملك، المصدر السابق، ص ٢١٦.

(٤) النواصرة، المصدر السابق، ص ١٠٠ - ١٠٢.

السلطان العثماني بعد الخسائر التي مني بها في بلاد الشام قد توجه بطلب المساعدة من بريطانيا وفرنسا لكن طلبه لم يسفر عن نتيجة تذكر في حين ابدت روسيا استعدادها لتقديم المساعدة للسلطان، وفي هذه الاثناء اصدر السلطان العثماني امرا نعت محمد علي باشا بالعاصي، والمتمرد على السلطان، وانه سبب الغوغاء في مصر، في الوقت الذي كلف فيه رئيس الديوان وناظر خارجيته محمد رشيد باشا ان يجتمعا مع سفيرى بريطانيا وفرنسا دون علم احد، ومن خلال المباحثات تبين ان لكل دولة منهما مصالح خاصة لا تعلمها الأخرى، ولكنهما اتفقتا معاً على اخراج السفن الروسية من المنطقة مهما كانت الاسباب وقد اصدر السلطان العثماني امراً إلى القادة العسكريين بأن يقوموا بجولة في المناطق التي يتوقع ان تنتشب الحرب فيها واقامة الاستحكامات العسكرية، ولاسيما في مناطق سيواس وكوك وقونية، والى جانب ذلك قامت السفن الحربية العثمانية بجولة على السواحل في ازمير، لتكون قريبة من العاصمة العثمانية اسطنبول لحمايتها، وفي قونية تم حشد الجنود ووضعت الاستحكامات الحربية وفي ٤ تشرين الأول سنة ١٨٣٢م وصل إلى اسطنبول مبعوث روسي استقبل بحفاوة من قبل السلطان العثماني الذي ابدى تقديره لمواقف الحكومة الروسية الداعمة للدولة العثمانية وفي ٣ تشرين الثاني سنة ١٨٣٢م امر السلطان العثماني ماورو باني (١٨٣٢-١٨٣٩م) سفير الدولة العثمانية لدى فيينا بالتوجه إلى لندن، حاملاً معه اقتراحات الباب العالي إلى الحكومة البريطانية بخصوص المساعدة، ومنح بريطانيا جميع الامتيازات التجارية التي تريدها مقابل ووقوفها ضد محمد علي باشا، فأجابت الحكومة البريطانية بأنها لا تستطيع الرد العاجل على مقترحات الباب العالي^(١).

٢- الموقف الروسي من السيطرة المصرية على بلاد الشام ١٨٣١-١٨٤٠م:

كانت روسيا القيصرية، تتطلع من فكرة تجزئة اراضي الدولة العثمانية والوصول إلى المياه الدافئة في البحر المتوسط و الخليج العربي، وكانت تعتبر ان انفصال بلاد الشام عن سلطة الاخيرة بداية لمرحلة انفصال واسعة فيها، لكن روسيا بدأت منذ عام ١٨٢٩م في اتباع سياسة مغايرة لسياستها التقليدية تجاه الدولة العثمانية، إذ عدت ان مسألة المحافظة على اراضي

(١) الناصرة، الموقف البريطاني الفرنسي من الحكم المصري، المصدر السابق، ص ١٠٢.

الدولة العثمانية امر مرغوب فيه في تلك الفترة، إذ ان حركة الانفصال هذه ستشجع حركات مماثلة اخرى في البلقان^(١).

ومن ثم تكوين دول كثيرة وان روسيا القيصرية سوف لن تتمكن من التعامل مع هذه الدول والسيطرة عليها، لذا قررت التخلي مؤقتاً عن سياستها التقليدية، واقامة التحالف السياسي مع الدولة العثمانية وبريطانيا لتحل محل فرنسا التي بدأت تنتهج سياسة مغايرة لباقي الدول الاوربية، أما النمسا وبروسيا فكانت تنتظر إلى مسألة السيطرة المصرية على بلاد الشام من المنظور البريطاني (أي الحفاظ على الوضع الراهن والحيلولة دون تفكك الدولة العثمانية)^(٢).

٣- الموقف الفرنسي من السيطرة المصرية على بلاد الشام ١٨٣١-١٨٤٠م:

كانت فرنسا قد ابدت سرورها بالسيطرة المصرية على بلاد الشام، وإلغاء الرسوم التي كان يدفعها الحجاج الأوربيون والرهبان إلى الدولة العثمانية من قبل، وكانت تؤيد محمد علي باشا في مشروعه التوسعي ، وقد اكد القنصل الفرنسي في الإسكندرية في رسالة بعث بها إلى حكومته بتاريخ ٤ كانون الثاني سنة ١٨٣٢م مفادها " ان محمد علي باشا يعرف تماماً إننا مؤيدون ومناصرون له"^(٣).

وكان القنصل الفرنسي يتردد باستمرار على محمد علي باشا ويغالي في التودد له ويخفي قصده في الاطلاع على نواياه، لذا كان يتوقع ان تجني التجارة الفرنسية فوائد جمة من امتداد السلطة المصرية على بلاد^(٤).

ورغم ذلك فقد عملت الدبلوماسية الفرنسية على احتواء الازمة بين السلطان العثماني ومحمد علي باشا مستغلة نفوذها التقليدي في مصر، وكانت تخشى من عواقب استيلاء محمد علي باشا على بلاد الشام، والتوغل في الاناضول، مما سيهدد الكيان العثماني ويفتح المجال امام التدخل الروسي في شؤون الدولة العثمانية، غير ان تدخلها لنصرة مصر، قد يمثل تهديداً

(١) العالم، المصدر السابق، ص ١٨٣؛ رينيه قطاوي بك وجورج قطاوي المصدر السابق، ص ١٢٧.

(٢) النواصرة، المصدر السابق، ص ١٠٤.

(٣) النواصرة، الموقف البريطاني الفرنسي من الحكم المصري المصدر السابق، ص ١٠٣.

(٤) النواصرة، المصدر نفسه، ص ١٠٣، ١٠٤.

للدولة العثمانية، ومبعثاً للاختلال الامني في القارة الاوربية، وانه في حال انتصر والي مصر فسيؤدي ذلك إلى التدخل الروسي لصالح الدولة العثمانية، وهنا ستضطر فرنسا للتدخل لحماية حليفها مصر، مما قد يضعها في المواجهة العسكرية مع روسيا (١).

كانت كل الخيارات امام فرنسا شديدة التعقيد، فضلاً عن أن خيار الحرب ضد روسيا لم يكن مستبعداً، لكن بقي هناك توجه واحد، وهو محاولة انهاء الازمة في اسرع وقت ممكن، عبر الوساطة السريعة مع الدولة العثمانية، وفي واقع الامر فإن فرنسا لم يكن لديها مانع حقيقي من قيام مصر بضم بلاد الشام لحكمها، اذ ان العلاقة بين فرنسا ومصر وطيدة و تتناسب مع الأهداف الفرنسية في البحر المتوسط. اما الوجود العثماني فهو في نهاية الامر ضرورة تفرضها الظروف الاستراتيجية الاوربية، ومن هذا المنطلق بات على فرنسا التوفيق بين هذين الموقفين، حماية للدولة العثمانية من ناحية، ومساندة حليفها من ناحية اخرى، واطلقت شائعات في بلاد الشام لم يعرف مصدرها تتهم فرنسا بأنها قد دعمت السيطرة المصرية على بلاد الشام وعملت على نجاحها سراً، وكذلك عملت بريطانيا، وكان العامل الاساسي الذي شجع فرنسا على مساندة محمد علي باشا ما خلصت اليه من انه لم يكن هدفة وراثه الدولة العثمانية، ولكن الاحتفاظ ببلاد الشام فقط، فاذا لم يقنع الوالي المصري ببلاد الشام فقط فان ذلك سيسمح لها بالتوسط لإنهاء الحرب، على هذا الاساس، او على اساس منح محمد علي باشا حكماً محدوداً في بلاد الشام ومصر فقط (٢).

وفي هذا الاثناء اشار فارني القنصل الفرنسي في اسطنبول (١٨٣٢-١٨٣٣م) ان محمد علي باشا لن يكتفي بحكومة في الشام ولديه رغبة تتمثل في خلع السلطان العثماني واعتلاء العرش مكانه، وكانت لدى الحكومة البريطانية اسباب جعلتها تخاف من التحالف بين فرنسا ومحمد علي باشا تتمثل في سيطرتها على مدخل البحر المتوسط، مما يزيد الضغط على بريطانيا ويخرجها خارج البحر المتوسط، في حين اعلن الفرنسيون انهم قصدوا من الحلف مع مصر زيادة القوة البحرية في البحر المتوسط وكان وزير الشؤون الخارجية الفرنسي سيباستياني

(١) رينيه قطاوي بك وجورج قطاوي، المصدر السابق، ص ١٢٦.

(٢) الناصرة، الموقف البريطاني الفرنسي من الحكم المصري، المصدر السابق، ص ١٠٥.

١٨٣٢-١٨٣٣م) قد بعث رسالة إلى قنصل بلاده في الاسكندرية ميمو بتاريخ ١٣ ايلول سنة ١٨٣٢م جاء فيها "ان محمد علي باشا لا يطمع بأكثر من سورية وقد سيطر عليها" (١).

في الوقت نفسه، كانت فرنسا ترى السيطرة المصرية على بلاد الشام تحقيقاً لأهدافها في المنطقة، خاصة انها كانت تقدم لمحمد علي باشا الخبرات الفنية المختلفة، والدعم الدبلوماسي وفي مذكرة بعثت بها وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية إلى قنصلها لدى الإسكندرية، جاء فيها: "وإذا كان محمد علي باشا يعترض فان فرنسا قدمت له خبرات فنية وإدارية وعسكرية فلنا ان نفخر بأننا ساعدن على إنشاء الدولة ... وستكون الحكومة الفرنسية مستعدة لتبرهن لمحمد علي باشا على صداقتها وحسن نيتها" (٢)، وكانت بريطانيا تختلف مع فرنسا في موقفها من محمد علي باشا، فالطرفان يجذبانه كل باتجاهه، وإذا ما نجحت فرنسا واخفقت بريطانيا في هذه اللعبة فان الاخيرة لن ترضى بهيمة فرنسا على بلاد الشام من خلال هيمنتها على محمد علي باشا لذا كان على بريطانيا ان تعمل وفق خطين متوازيين هما: سحب السلطان العثماني من هيمنه النفوذ الروسي، وسحب محمد علي باشا من هيمنة النفوذ الفرنسي ولتحقيق الهدف الاول، وقد سعت بريطانيا بالتعاون مع فرنسا لإبعاد النفوذ الروسي عن السلطان العثماني، وشاظرتها في ذلك فرنسا لخشيته من اخطار التدخل الروسي، فعملت بكل قوتها الدبلوماسية لإنهاء حالة الحرب الدائرة بين السلطان و والي مصر، وإحلال السلم بينهما بفرض اتفاق صلح على كل منهما، دون وساطة الدول الاوربية حتى البريطانية منها لتجنب وقوع السلطان تحت تأثير بريطانيا وإثناء الوضع الحرج الذي كانت تمر به الدولة العثمانية، طلب السلطان العثماني من السفير الفرنسي لدى اسطنبول ان يكتب إلى ابراهيم باشا طالباً بوقف زحفه باتجاه العاصمة العثمانية، وان ينتظر تسوية النزاع بالطرق السليمة فاستجاب لدعوة السلطان، وكتب رسالة إلى ابراهيم باشا طالباً منه تنفيذ رغبة السلطان العثماني ومما يلحظ ان فرنسا و حتى تلك الفترة، كانت تسعى لاستغلال الموقف لصالحها، فهي لم تعارض الحملة المصرية على بلاد الشام، بل كانت تؤيدها، بيد أنها لم تصرح بذلك علانية لتتجنب عداء السلطان العثماني، فالموقف الفرنسي في تلك الفترة كان دبلوماسياً ما بين الطرفين العثماني والمصري

(١) المصدر نفسه، ص ١٠٦.

(٢) أبو عز الدين، المصدر السابق، ص ٢٤٠.

لكن السياسة الفرنسية كانت ترغب بانتصار جيش محمد علي باشا على جيش السلطان، لأنها كانت تنظر إلى بلاد الشام نظرة خاصة، وترغب في زيادة امتيازاتها فيها لأنها في حالة تنافس مع بريطانيا للسيطرة على هذه المنطقة^(١).

خامساً: انسحاب الجيش المصري من بلاد الشام ١٨٤٠م:

تناقضت مصالح الدول الأوروبية من وجود حكومة مركزية قوية تحكم مصر وبلاد الشام في أن واحد، فبريطانيا حاولت منذ وقت مبكر إقناع محمد علي باشا والي مصر بأن مصلحته في التوسع في السودان والجزيرة العربية واليونان وليس في بلاد الشام، وذلك لأنها كانت تخشى من قيام دولة قوية تسيطر على الولايات العربية في المشرق قد تكون بديلة عن الدولة العثمانية وتقطع عليها الطريق نحو الهند التي كانت تمثل حجر الزاوية في سياسة بريطانيا مع هذه المنطقة لذا بذلت الكثير من الجهود من أجل تفويض السيطرة المصرية على بلاد الشام^(٢).

أما فرنسا فقد كانت لها موقفاً الخاص النابع من مصالحها أيضاً فقد أبدت تأييدها لمشروع محمد علي باشا والي مصر بالسيطرة على بلاد الشام وكان القنصل الفرنسي في بيروت جورل دروغمان (١٨٣٢-١٨٣٧م) قد أبدى سروره بسيطرة محمد علي باشا على بلاد الشام وقيامه بإلغاء الرسوم المالية التي كان يدفعها الحجاج الأوروبيون إلى القدس والرهبان إلى الدولة العثمانية لكن على الرغم من ذلك حرصت فرنسا على أن لا تسمح لمصر بانتهاج سياسة مستقلة عن الدولة العثمانية تؤول في النتيجة إلى تفكيك هذه الأخيرة مع ما سيترتب من إحداث خلل في ميزان القوى السائدة بين الدول الأوروبية^(٣)، واحتمال سيطرة روسيا على اسطنبول والمضايق البحرية في الدردنيل والبسفور ووصولها إلى المياه الدافئة لذا اتفقت السياستان البريطانية والفرنسية على المحافظة على وحدة أراضي الدولة العثمانية، لكن اختلفا حول نقطة واحدة وهي اصرار بريطانيا على حصر قوة محمد علي باشا داخل مصر لإبعاده

(١) أبو عز الدين ، ابراهيم باشا، المصدر السابق ، ص ٢٤٠.

(٢) العالم، المصدر السابق، ص ١٨٢ ؛ النواصرة، المصدر السابق، ص ٩٤ ؛ رينيه قطاوي بك وجورج قطاوي، المصدر السابق، ص ١٢٦.

(٣) رينيه قطاوي بك وجورج قطاوي، المصدر السابق، ص ١٠٥؛ النواصرة، المصدر السابق، ص ١٨٢-١٨٣

عن طريق مستعمراتها في الهند، في حين رأت فرنسا اعطاء محمد علي باشا حكومة مصر وبلاد الشام وجعلها وراثية في أسرته وذلك تحقيقاً لسياستها في قطع الطريق على المستعمرات البريطانية في الهند، وظلت فرنسا تشاطر بريطانيا في خشيتها من اطماع روسيا القيصرية في اراضي الدولة العثمانية سواءً في البلقان اوفي منطقة المضائق العثمانية التي تحلم بالسيطرة عليها^(١).

أما روسيا القيصرية، فقد كانت تنطلق من فكرة تجزئة اراضي الدولة العثمانية والوصول إلى المياه الدافئة في البحر المتوسط، وكانت تعتبر ان انفصال بلاد الشام عن سلطة الأخيرة بداية لحركة انفصال واسعة مما قد يضر بمصالحها في المنطقة^(٢)، لذا قررت التخلي مؤقتاً عن سياستها التقليدية، وإقامة تحالف سياسي مع الدولة العثمانية وبريطانيا لتحل محل فرنسا التي بدأت تنتهج سياسة مغايرة لباقي الدول الأوروبية^(٣).

أما النمسا وبروسيا فكانت تنظر إلى مسألة السيطرة المصرية على بلاد الشام من المنظور البريطاني، كانت بداية التدخل الأوربي الفعلي في هذه المسألة عندما حاول السلطان عبدالمجيد الاول التفاوض مع محمد علي باشا والي مصر لاسترجاع الاسطول العثماني، فاذا بالدول الأوروبية الخمس ترسل مذكرة لكل من الطرفين توصيهما بعدم ابرام أي اتفاق من دون معرفتهم المسبقة بمضمونه، وقد شعر محمد علي باشا بأن مطامع الدول الأوروبية في المشرق لن تدعه يستغل ثمره انتصاراته على الدول العثمانية فأخذ يستعد لجميع الاحتمالات بما فيها التحدي العسكري لمحاولة اقصائه عن بلاد الشام، فشرع في تحصين المواقع العسكرية المهمة في مصر وبلاد الشام، وطلب من ابنه ابراهيم باشا ان يجمع الحاميات العسكرية المتفرقة ويقوم بحشدها في المواقع الاستراتيجية، وتوقع السكان في بلاد الشام عودة محمد علي باشا إلى التشديد في تطبيقه التجنيد الإلزامي^(٤).

(١) النواصرة، الموقف البريطاني الفرنسي من الحكم المصري، المصدر السابق، ص ١٠٦-١٠٣.

(٢) غنام، المصدر السابق، ص ١٢٦-١٢٧.

(٣) النواصرة، المصدر السابق، ص ١٠٤؛ العالم، المصدر السابق، ص ١٨٣.

(٤) يعتبر التجنيد الإلزامي من أكثر المشاكل التي واجهت الحكومة المصرية في بلاد الشام، وذلك لان السكان لم يعتادوا على مثل هذا الإجراء في بلادهم، ولان معظم سكان المنطقة هم من اصحاب الحرف والمزارعين لذا فان مسألة التجنيد كانت تعني لهم ترك اعمالهم ومزارعهم الالتحاق في صفوف الجيش . أبو عز الدين، المصدر السابق، ص ٢٤٤.

وقد خشي نصارى لبنان ان يقوم إبراهيم باشا بتجنيدهم مرة أخرى وشاطرهم الدروز هذه المخاوف، لذا اتفق الطرفان في ٢٧ أيار عام ١٨٤٠م في دير قمر التصدي لأية محاولة يقوم بها إبراهيم باشا من اجل تجنيدهم، وكان الأخير قد بلغه خبر هذا الاتفاق فكتب إلى حليفه بشير الشهابي يطلب منه تجريد النصارى من السلاح الذي كان قد وزع عليهم اثناء انتفاضة وادي التيم عام ١٨٣٨^(١).

وقد تدخلت بريطانيا في هذه المسألة، فعملت على تحريض جميع أهالي لبنان على الثورة ضد الحكم المصري، وأشارت عدد من المصادر إلى تدخل عدد من الدبلوماسيين الفرنسيين العاملين في بيروت في مسألة تحريض اهالي لبنان على الثورة ضد الحكم المصري، وان ذلك كان خارج الإطار السياسي للحكومة الفرنسية التي عملت على إبعاد عدد من دبلوماسيها عن بيروت^(٢).

بدأ بث الدعاية للعصيان في كافة انحاء لبنان وقد انضم إلى العصيان عدد من الامراء الشهابيين المعارضين للأمير بشير الثاني إلى جانب بعض اعيان البلاد المعارضين للحكم المصري في بلاد الشام، وقد كان اهالي دير القمر في جبل لبنان أول المنتفضين، اذ شكلوا قوة عسكرية سارت تحت قيادتهم للتعرض لقوات ابراهيم باشا في صيدا وضواحيها، وقد اثاروا القلاقل في تلك النواحي، اذ قاموا بقطع المياه عن مركز صيدا فضلاً عن الطرق المؤدية إلى المطاحن القريبة منها^(٣).

حاولت الحكومة المصرية في بلاد الشام تهدئة المنتفضين فادعت بأنها لا تتوي انتزاع كافة الأسلحة من أيدي النصارى، وفي الوقت ذاته سارع بشير الشهابي الى تفريق صفوف الثوار

(١) العالم، الامارة الشهابية، المصدر السابق، ص ١٨٤.

(٢) كان عدد من الدبلوماسيين الفرنسيين يحرضون أهالي جبل لبنان على الثورة ضد ابراهيم باشا وذلك عن طريق تزوير أهالي الجبل بالسلام وترويج الإشاعات التي تقول ان فرنسا ستدعم الثورة ضد المصريين . للمزيد من التفاصيل ينظر: ابو صالح، المصدر السابق، ص ٢٧٤.

(٣) ابو عزالدين، المصدر السابق، ص ١٤٧.

اذ ارسل عدد من رجال الدين النصارى إلى المناطق الساخنة لإقناع ابناء ملتهم بالركون إلى الهدوء والسكينة، فترجع المنتفضون، إلا ان شرارة الانتفاضة انتقلت إلى بيروت^(١).

وقد نادى عدد من الأمراء الشهابيين المعارضين للأمير بشير جهاراً بالدعوة للوقوف إلى جانب الدولة العثمانية، وقد هاجم المنتفضون المحجر الصحي خارج بيروت، وتمكنوا من تحقيق الانتصارات على الحامية المصرية الموجودة في ضواحيها ثم ما لبث ان انتفض معظم اهالي جبل لبنان في ٨ حزيران عام ١٨٤٠م وعقد المنتفضون اجتماعاً في انطلياس اتفقوا فيه على ان يكونوا يداً واحدة ضد السلطة المصرية في بلاد الشام، وبعثوا برسالة في تموز من العام ذاته إلى السلطان العثماني عبدالمجيد يشكون فيها مظالم محمد علي باشا^(٢)، وبعثوا برسالة مماثلة إلى كل من القنصل البريطاني والفرنسي في اسطنبول يطلبون مساعدتهم على التخلص من الحكم المصري وعودة السلطة العثمانية إلى جبل لبنان، وأصرروا على موقفهم ما لم تستجب السلطة المصرية فعلياً إلى مطالبهم بعدم تجريدهم من السلاح وأبطال اعمال التجنيد الإلزامي والسخرة، وكان هذا الموقف نابعاً من الدعم البريطاني للمنتفضين، اذ قامت بتزويدهم بخمسمئة قطعة سلاح في مطلع صيف عام ١٨٤٠م، فضلاً عن ما تلقوه من سلاح عن طريق عدد من الدبلوماسيين^(٣)، سارع محمد علي باشا إلى ارسال قوة عسكرية إلى جبل لبنان، وقد تمكنت هذه القوات من إخماد هذه الانتفاضة والقبض على عدد من زعمائها^(٤).

ما ان شعرت الدول الأوروبية الكبرى (بريطانيا والنمسا وروسيا القيصرية وبروسيا) المتحالفة مع الدولة العثمانية بقدرة محمد علي باشا والي مصر على إخماد أي انتفاضة تقوم ضده في بلاد الشام حتى بدأت تدخلها المباشر لإنهاء حكمه فيها ووضع حد نهائي لطموحاته، فاجتمعت هذه الدول في ١٥ تموز ١٨٤٠م في لندن باستثناء فرنسا وقررت بموجب هذا الاجتماع منح

(١) العالم، المصدر السابق، ص ١٨٥.

(٢) مجموعة محررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنانية ١٨٤٠ - ١٩٨٠١، ترجمة فيليب وفريد الخازن، مج ١، دار نظير عبود، (بيروت، ١٩٩٦م)، ص ١١، ١٢.

(٣) هنري غميز، بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن، ترجمة مارون عبود، ج ٢، ط ٢، دار مارون عبود، (بيروت، ٢٠٠٠م)، ص ١٩٥.

(٤) ابو صالح، المصدر السابق، ص ٢٧٩؛ العالم، المصدر السابق، ص ١٨٦.

محمد علي الحكم الوراثي على مصر وعكا شرط قبوله بإخلاء ادنة وجزيرة كريت، وان يعيد الأسطول العثماني في الاسكندرية ^(١)، ومنحه عشرة أيام لتنفيذ تلك الشروط، وفي حالة عدم التزام محمد علي باشا بتنفيذها في المدة المحددة يحرم من حكم عكا ويتقلص حكمه على مصر فقط، مع إعطائه مهلة عشرة أيام أخرى للقبول بتلك الشروط، وفي حال إصراره على عدم التنفيذ في هذه المدة يحرم من حكمه الوراثي لمصر ويتم اتخاذ الإجراءات التي يراها السلطان العثماني عبدالمجيد مناسبة ^(٢).

وتعهدت هذه الدول بمساعدة الأخير لتنفيذ ما يتخذه من قرارات مناسبة حول هذا الموضوع، وكان من الطبيعي ان يرفض محمد علي باشا والي مصر مقررات مؤتمر لندن، وعندما انتهت المهلة الأولى المعطاة له في ٢٧ اب ١٨٤٠م، قامت بريطانيا بتنفيذ ما اتفق عليه اذ امرت قواتها البحرية بقطع طرق المواصلات بين محمد علي باشا في مصر وابنه ابراهيم باشا في بلاد الشام، وكان بشير عازماً على المضي في مساندة حليفه على الرغم من تأييد معظم أهالي لبنان للدولة العثمانية واستعدادهم للثورة ضد الحكم المصري بسبب دعوة إبراهيم باشا لنزع سلاح الاهالي مجدداً، وقد دخلت الدول الأوروبية المجتمعمة في لندن إلى جانب الدولة العثمانية في حرب معلنة ومكشوفة ضد محمد علي باشا ^(٣)، وعادت على اثر ذلك الانتفاضة في جبل لبنان لتتحول إلى ثورة ضد الحكم المصري وتدعم الدولة العثمانية وحلفاءها الاوربيين الذين قاموا بتزويد الثوار بالأسلحة اللازمة، بواسطة سفنهم الحربية التي كانت تستعرض قواها قبالة سواحل بيروت، وخاصة السفن البريطانية والنمساوية ^(٤).

أعلم البريطانيون بشير بمقررات مؤتمر لندن، ودعوه إلى طاعة الدولة العثمانية وأعطوه مهلة ثمانية أيام لاتخاذ ذلك القرار لقاء بقائه في السلطة، ثم اتصلوا بالأمير بشير قاسم بن ملحم الشهابي الملقب ب(بشير الثالث) في لبنان، ويعد من ابرز معارضي بشير الثاني يحثوه على

(١) اسد رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ، مج ١ ، منشورات كلية العلوم والآداب، الجامعة الأمريكية في بيروت ، (بيروت ، ١٩٢٩م)، ص١٤٨.

(٢) ميخائيل مشاققة ، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، تحقيق خليل عبود،(مصر، دن، ١٩٠٨م)، ص١٢٧.

(٣) ابو عزالدين، ابراهيم باشا ،المصدر السابق، ص٣٤٣.

(٤) ابو صالح، المصدر السابق، ص٢٨٥.

الانحياز إلى جانب الدولة العثمانية والتحريض على الثورة في جبل لبنان، وان السلطان العثماني عبدالمجيد سيكافئه لقاء ذلك بتقليد السلطة في لبنان مباشرة، ولم يوافق بشير الثاني على العرض البريطاني المقدم له بحجة وجود أبنائه وأحفاده في صفوف القوات المصرية، وقد كان يعول على الموقف الفرنسي المؤيد لمحمد علي باشا، وعندما تيقن ان بريطانيا كانت جادة في إجلاء القوات المصرية من بلاد الشام أبلغ بشير الثاني قائد القوات البريطانية المرابطة في ساحل بيروت انه على استعداد للوقوف إلى جانب الدولة العثمانية لقاء بقائه في السلطة بضمنان الدول الأوربية الكبرى المتحالفة معها، عندها لم يوافق قائد القوات البريطانية على إعطاء أية ضمان لكنه أعطى مهلة للانضمام إلى جانب الدولة العثمانية إلى حين تمكنه من استعادة ابنائه وأحفاده الموجودين في صفوف القوات المصرية وحدد له موعداً أقصاه في ٨ تشرين الأول عام ١٨٤٠م^(١).

استمر بشير الثاني في تأييده ودعمه لحليفه محمد علي باشا، وكانت المناوشات العسكرية قد بدأت بين القوات المصرية بقيادة ابراهيم باشا والقوات العثمانية والبريطانية في كسروان وغيرها من المقاطعات في جبل لبنان، وقد قام أهالي كسروان بدورهم بالهجوم على مواقع الجيش المصري في مقاطعتهم، إلا ان ابراهيم باشا وبمساعدة بشير الثاني تمكن من دحرهم إلى الساحل، ثم تراجع أمام ضغوط القوات العثمانية والبريطانية إلى سهل البقاع إذ قام البريطانيون بتزويد بشير الثالث بالسلح وأوعزوا له القيام باستنزاف القوات المصرية اثناء تراجعها^(٢).

كما تمكنت القوات العثمانية والبريطانية والنمساوية من السيطرة على صور وصيدا وبيروت، ثم اشتبكوا مع القوات المصرية في قرية بحر صاف شمال المتن في ١٠ تشرين الأول عام ١٨٤٠م، وكانت قوات بشير الثالث تشارك إلى جانب قوات الحلفاء، في حين شاركت قوات بشير الثاني إلى جانب قوات المصرية التي اندحرت في هذه المعركة، وألقت قوات إبراهيم باشا في هذه الأثناء سلاحها وشعر أن زمام الأمور بدأت تفلت من يده^(٣).

(١) العالم، المصدر السابق، ص ١٨٨.

(٢) ياسين سويد، التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في العهد الإمارين، ج٢، (بيروت، ١٩٨٠)، ص ٤٥٥.

(٣) ابو صالح، المصدر السابق، ص ٢٨٨.

حاول إبراهيم باشا إغراء الدروز في جبل لبنان للوقوف إلى جانبه مقابل إعطائهم حكم مقاطعة كسروان من أجل إضعاف الثورة التي نشبت ضده في جبل لبنان والتي كانت تضم في صفوفها العديد من النصارى، إلا ان الدروز رفضوا العرض وعزموا على البقاء إلى جانب الثوار^(١).

أما بشير الثاني فقد شعر هو الآخر بان القوات المصرية لا يمكن أن يطول بقائها أمام عزم الدولة العثمانية وحلفائها على إخراجها من بلاد الشام، فعزم على انضمام إلى معسكر الدول العثمانية، إلا ان المدة التي أعطيت له كانت قد انتهت، فالتصمت بريطانيا من الدولة العثمانية القيام بعزله من منصبه كأمر على جبل لبنان وتعيين صهره بشير الثالث عوضاً عنه، فصدر مرسوم الدولة العثمانية القاضي بتتصيب الأخير أميراً على جبل لبنان وعزل بشير الثاني من منصبه في ١٠ تشرين الثاني عام ١٨٤٠م^(٢).

دامت الحرب ضد الوجود المصري في بلاد الشام قرابة ستة أشهر منذ الأول من أيلول عام ١٨٤٠م وحتى ٣١ كانون الأول منه، حيث انسحب آخر جندي مصري من غزة، أما بشير الثاني فقد سلم نفسه إلى الدولة العثمانية إذ نفي أولاً إلى جزيرة مالطة في البحر المتوسط، ثم نقل بعدها إلى اسطنبول وتوفي هناك في ٢٩ كانون الأول عام ١٨٥٠م عن عمر يناهز الرابعة والثمانين^(٣).

(١) مشاقفة ، المصدر السابق ، ص ص ١٣٢ ، ١٣٣-١٣٨ ، العالم ، المصدر السابق ، ص ١٨٩ .

(٢) مجهول (المؤلف) ، نبذة مختصرة عن حوادث لبنان والشام ، ١٨٤٠-١٨٤٢ لأحد كهنة الأرمن ، نشره

لويس شيخو اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، (بيروت ، ١٩٢٧م) ، ص ٥ ؛ العالم ، المصدر السابق ، ص ١٨٩ .

(٣) سويد ، المصدر السابق ، ص ٤٦١ .

الخاتمة

خلص البحث الى الاستنتاجات الآتية:

- ان موقع بلاد الشام الاستراتيجي القريب من مركز السلطة العثمانية و من مصر فضلا عن اطلالتها على الساحل الشرقي للبحر المتوسط جعلها محط انظار القوى الاقليمية و الدولية عبر تاريخها الطويل .
- ساهم الوضع السياسي و الاقتصادي المتردي لبلاد الشام خلال القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر في تسهيل مهمة التدخل فيها سياسيا و عسكريا و اقتصاديا وهذا ما حدث فعلا.
- ان طموح محمد علي باشا في تأسيس دولة قوية و حديثة دفعه الى حتمية ضم بلاد الشام الى دولته خاصة بعد النجاحات العسكرية التي حققها في كل من بلاد الحجاز و السودان.
- تقبل اهالي بلاد الشام فكرة السيطرة العسكرية المصرية عليهم خاصة بعد النجاحات الداخلية التي حققها محمد علي باشا في المجال السياسي و الاقتصادي و نجاحه في نقل مصر الى حالة جيدة من الاستقرار بعد الفوضى التي اجتاحتها في زمن المماليك املين ان يحقق نفس الاصلاحات في بلادهم.
- لم يواجه الجيش المصري اية مقاومة عسكرية عند اجتياحه لبلاد الشام بسبب ضعف السلطة المركزية العثمانية و تذرر الاهالي منها كما ساهمت الاتفاقيات السياسية التي عقدها محمد علي مع القوى السياسية في بلاد الشام في تسهيل هذه المهمة.
- عمل والي مصر على تحديث الادارة في بلاد الشام بتطبيق نفس القوانين و النظم الادارية التي اتبعها في مصر بدون دراسة مسبقة لواقع بلاد الشام الاداري و الاجتماعي على وجه التحديد مما ولد نفور لدى الأهالي من سياسة الحاكم الجديد خاصة في المجال الاقتصادي و العسكري.
- سياسة محمد علي باشا في نزع سلاح الاهالي وفرض التجنيد الالزامي وفرض ضرائب باهظة اجج الانتفاضات ثم الثورات ضد الحكم المصري وعجل من التدخل الاوربي في المنطقة خاصة بعد خيبة املمهم من سياسته التي لم تحقق الاصلاحات التي كانوا ينشدونها .
- تدخلت الدول الاوربية في بلاد الشام انطلاقا من مصلحة كل دولة على حدى ثم التقت هذه المصالح في اخراج محمد علي باشا من بلاد الشام.

- انضمت روسيا الى جانب الدولة العثمانية اولا لطرده المصريين من بلاد الشام انطلاقا من سياسة الحفاظ على اراضي الدولة العثمانية كما هي لحين ترتيب اتفاقيات سياسية دولية تضمن لها نصيب جيد من هذه الاراضي.
- كان للصراع البريطاني الفرنسي على مناطق النفوذ وخاصة في المشرق العربي ان عجل في تدخل الاولى في بلاد الشام لإخراج المصريين منها خاصة وانهم كانوا يميلون لصالح السياسة الفرنسية التي كانت داعمة لهم اول الامر.
- وقفت فرنسا الى جانب محمد علي باشا اول الامر وساهمت في دعمه سياسيا وعسكريا لقطع الطريق على بريطانيا اذ انطلقت من فكرة مفادها ان سيطرة حليف قوي على بلاد الشام ثم العراق سيقطع طريق الهند التجاري الذي عد الحجر الاساس في سياسة بريطانيا في المنطقة.
- لم تكن الدولة العثمانية قادرة بنظامها السياسي و الاقتصادي و العسكري المتهاك على مواجهة جيش منظم و حديث كالذي انشأه محمد علي باشا في مصر لذا سارعت بطلب النجدة و العون من الدول الاوربية التي لم تلي جهدا في التدخل في هذه المسألة لتحقيق اهدافها السياسية.
- التفت مصالح الدول الاوربية مع مصلحة الدولة العثمانية في ضرورة اخراج المصريين من بلاد الشام خوفا من تأسيس دولة تفرض قوتها وسلطتها على المنطقة وتعيق تنفيذ مشاريعهم التوسعية الاستعمارية وهذا ما حدث في اتفاقية لندن عام ١٨٤٠م.

The international position on the Egyptian control of the Levant 1813-1840 AD

Asst.Lect. Shafi` Muhammad Mahmoud

Abstract

The Levant has been the focus of international conflicts in its ancient, modern and contemporary history because of its important strategic position and great economic resources. In the Ottoman era, this region was not stable since they ruled it in 1517 A.D. until the beginning of the nineteenth century in all political, economic and social fields. Therefore, this made it the focus of the regional and international powers, and since they constitute the strategic depth of Egypt was thought by the strong Mohammed Ali Pasha (1805-1848 A.D.) to include the draft state of modern paving political and then military intervention. And this intervention has brought serious consequences on the internal and external levels of the Ottoman Empire.